

الحروب الإيطالية

وتأثيرها على العلاقات الدولية الأوروبية

م.د. محمد حمزة حسين / م.د. سلوان رشيد رمضان (١٤٩٤-١٥٥٩م)

م.د. لبنى رياض عبد المجيد / جامعة الحمدانية/ كلية التربية

المخلص

لم تكن إيطاليا دولة موحدة، بل كانت مكونة من عدد من الجمهوريات والإمارات، مما أدى إلى تضارب مصالحها، وإلى صراعات منها الصراع بين الولايات البابوية والبندقية، وبين الولايات البابوية وفلورنسا، وصراعات شاركت فيها ميلان، وليس من الغريب أن يكون لكل جمهورية ومدينة كبرى من تلك المدن الإيطالية جيش خاص بها ويعمل لحسابها، ومن ثم لم يكن هناك جيش موحد لإيطاليا، وإنما جيوش متقابلة، وكانت إيطاليا مسرحاً وهدفاً للصراع الدائر على أرضها، بقدر أكبر مما كانت طرفاً مشاركاً فيه.

انحصر الصراع بين فرنسا وإسبانيا بصفة خاصة بشأن امتلاك شبه الجزيرة الإيطالية، وكان له أهمية كبيرة في تلك المدة، ذلك أنه كان يعنى امتلاك أو على الأقل سيطرة إحدى هاتين الدولتين على شبه الجزيرة الذي يشكل أمراً له آثار اقتصادية وسياسية بعيدة المدى، ومنها أن السيطرة ليست سيطرة على إيطاليا فقط، ولكنه تفوق سياسي لتلك الدولة المسيطرة، ولذلك تابعت الدول الأوروبية الصراع الدائر في إيطاليا للحفاظ على مصالحها داخل القارة وهو شيء مهم بالنسبة لأي دولة، فإنكلترا -مثلاً- كانت تخشى على ثغر كاليه Calais الوحيد الذي تحتفظ به انكلترا في الأراضي الفرنسية حينما فكر ملكها هنري السابع Henry VII ١٤٨٥-١٥٠٩م الدخول في مضمار الصراع الدائر وكان يهدف إلى تحقيق تفوق سياسي لإنكلترا.

خشي ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة مكسمليان الأول Maxmlian ١٤٥٩-١٥١٩م، من تفوق أية قوة في المنطقة، إذ إن أملاكه في التيرول Tirol -مقاطعة نمساوية- متاخمة للبندقية، والسويسريون وجدوا في

تلك الحرب فرصة لتأجير أنفسهم كمرتزقة للعمل بجيوش الأطراف المتنازعة، وانقسمت الدويلات على نفسها، أما بقية الدول الأوروبية، فقد تبنت مبدأ توازن القوى *Balance of Power* - ومعنى ذلك أنه إذا بلغت دولة ما قدراً كبيراً من القوة السياسية بحيث إنها أصبحت خطراً على الدول الأخرى المجاورة وجب تكوين حلف سياسي عسكري للحد من نفوذها، وفي تلك الحرب تأججت المنافسة المريرة بين أسرتي الفالو وآل بوربون في فرنسا وأسرة الهابسبرج ذلك التنافس الذي استمر مدة قرنين من الزمان وكان له أثره على السياسة الدولية.

شغلت الحروب حكام أوروبا الكاثوليك عن مواجهة حركة الإصلاح الديني مما مهد وساعد بطريق غير مباشر لإنجاح أهداف الإصلاح الديني والسير في طريقها، ولم ينتبه حكام أوروبا إلى ذلك الخطر إلا بعد أن كانت أسس العقيدة البروتستانتية قد انتشرت في كل من أوروبا الشمالية وألمانيا وانكلترا.

Abstract

Italy was not a united state; it was made up of a number of republics and emirates, leading to conflicts of interest, conflicts such as the conflict between the Papal States and Venice, between the Papal States and Florence, and conflicts in which Milan participated. These Italian cities were an army of their own and worked on their own. Thus, there was no uniform army of Italy, but armies opposite, and Italy was a theater and a target of the conflict on its territory more than it was a participant.

The conflict between France and Spain in particular was limited to the possession of the Italian peninsula and was of great importance in that period. It meant owning or at least controlling one of the two countries on the peninsula, which had far-reaching economic and political implications, But the political superiority of that dominant state, and therefore the European countries followed the conflict in Italy to maintain their interests within the



continent which is important for any country, for example - England was afraid of the gap Calais Calais only maintained by England in French territory when Think of a king Henry VII (1485-1509) entered the arena of the ongoing conflict and aimed to achieve political superiority of England.

The king of the Holy Roman Empire, Maxmlian 1459-1519, feared that any power in the region would prevail because his property in Tirol, an Austrian province, was adjacent to Venice. In that war, the Swiss found an opportunity to hire themselves as mercenaries to work with the armies of the conflicting parties. The rest of the European countries adopted the principle of balance of power - the balance of power - that is, if a country reached a great deal of political power that it became a threat to other neighboring countries must form a military political alliance to reduce its influence, and that war fueled bitter competition between My family is Falo and Al Bourbon in France and the Habsburgs, a two-century rivalry that has had an impact on international politics. Europe's Catholic rulers were engaged in the struggle against religious reform, which indirectly paved the way for the success of religious reform. The European rulers were aware of this danger only after the foundations of the Protestant faith spread throughout Northern Europe, Germany and England.

المقدمة

كانت ايطاليا مكونة من عدة جمهوريات وامارات، مما أدى إلى تضارب مصالحها، وإلى صراعات منها الصراع بين الولايات البابوية والبندقية، وبين الولايات البابوية وفلورنسا، وصراعات شاركت فيها ميلان، وليس من الغريب أن يكون لكل جمهورية ومدينة كبرى من هذه المدن الإيطالية جيش خاص بها ويعمل لحسابها، ومن ثم لم يكن هناك جيش موحد لإيطاليا، وإنما جيوش متقابلة، كما كانت إيطاليا مسرحاً وهدفاً للصراع - الفرنسي الإسباني

- الدائر على أرضها، بقدر أكبر مما كانت طرفاً مشاركاً فيه.
قسم البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، درس المبحث الأول (أسباب الحروب الإيطالية)، في حين عالج المبحث الثاني (مراحل الحروب الإيطالية)، أما المبحث الثالث فقد كان بعنوان (نهاية الحروب الإيطالية- صلح كاتو كمبرسيس).

المبحث الأول: أسباب الحروب الإيطالية

شجعت حالة إيطاليا المتردية الدول المجاورة الطامعة في تدعيم كيائها السياسي في الداخل على احتلالها، فبالرغم من أن إيطاليا هي مهد النهضة الأوروبية الحديثة^(١)، إلا أنها كانت في حالة شديدة من التفتك فضلاً عن ذلك أنه لم يكن لها جيش يدافع عن مصالحها، وكذلك فقد وجدت فرنسا في سوابق تاريخها فرصة لتحقيق هدفها باحتلال إيطاليا^(٢).

كان هناك سبب قوي وأساسي إلى التوسع الفرنسي وهو الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت في حالة متردية بسبب الصراع المستمر بين الإمبراطور والدويلات الإيطالية والدول الأوربية، فكانت الإمبراطورية مكونة من عدد من المقاطعات المختلفة^(٣).

أما فرنسا فإنها خرجت من حرب المائة^(٤) عام ١٣٣٧-١٤٥٣م أقوى ما تكون من أي عصر سبق، وذلك لأنها استطاعت استثمار الانتصار الذي حققته في حرب المائة عام عن طريق اتحادها وقيام حكومة قوية بها، ولهذا فقد كانت فرنسا من أقوى الدول في هذه المدة التي يخشى منها ومن قوتها، وكذلك الحال بالنسبة لإسبانيا فإنها استطاعت اخراج العرب من القارة الأوربية وأصبح لها جيش ذو قوة لا يستهان بها، وكانت لها حقوق في إيطاليا مثل فرنسا إن لم تكن أكثر، ومن ذلك أن صقلية كانت تابعة لإسبانيا فرغبت في التوسع في إيطاليا^(٥).

المبحث الثاني: مراحل الحروب الإيطالية

مرت الحروب الإيطالية بدورين، الأول مع مستهل عام ١٤٩٤م، وفي هذا الدور حاولت فرنسا تحقيق ادعائها في نابولي وميلان ومن ثم فقد قام

الملك شارل الثامن^(٦) Charles VIII ١٤٨٣-١٤٩٨م بهجومه على إيطاليا في شباط ١٤٩٥م، مفتحاً الحروب الإيطالية^(٧).

أما الدور الثاني فقد أنتهى عام ١٥٥٩ بتوقيع صلح كاتوكمبرسيس، إذ شهد ذلك الدور صراع أكبر أسرتين في ذلك الوقت وهما: أسرة الهابسبرج النمساوية الأصل والتي أضحى ابنها شارل (Charles كارلوس الخامس ١٥١٢-١٥٥٦م) ملكاً لإسبانيا وإمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة وأسرة الفالوا الفرنسية، وقد شهد ذلك الدور تطبيق مبدأ التوازن الدولي^(٨).

أ. الدور الأول (١٤٩٤-١٥١٥م)

اعتلى شارل الثامن العرش بعد وفاة لويس الحادي عشر Louis XI ١٤٦١-١٤٨٣م وورث عنه جيشاً قوياً كان يدين بالطاعة والولاء التام للملك، كذلك فإنه تم تطوير سلاح المدفعية الفرنسية لدرجة مناسبة حتى أصبح الجيش الفرنسي من أقوى الجيوش الأوروبية في ذلك الوقت^(٩).

كان شارل الثامن طموحاً يبغى أن يخلد التاريخ اسمه بصفحات مشرقة حتى قيل إنه كان يريد أن يتشبه بالإسكندر الأكبر وأن يطرد الأتراك العثمانيين من القسطنطينية ويعيد أمجاد الحروب الصليبية في الشرق، وكان هدف شارل الثامن أن يقوم بأعمال مدوية ترفع اسمه عالياً، فقد رأى القدر الكبير من النهضة بها في الوقت الذي كانت تتكاثر فيه ثرواتها نتيجة التجارة^(١٠).

وجد شارل الثامن عددٍ من الحقوق له في التدخل في إيطاليا من ذلك أنه طالب بحقه في الوراثة في نابولي، كذلك فإن أسرة أورليان الفرنسية كان لها صلة مصاهرة من أسرة أسفورزا الحاكمة في ميلان. وفي الحقيقة فإن هذه الأسباب كانت مجرد غطاء دبلوماسي وعسكري اتخذها شارل الثامن للتدخل في إيطاليا^(١١).

سنحت الفرصة لشارل الثامن بعد أن كان قد أتم استعداداته الدولية لهذه الحرب، فقد عقد معاهدات مع إنكلترا والإمبراطورية الرومانية المقدسة في مقابل بعض المنح المالية والأراضي الإقليمية وحن الوقت لهذا التدخل حينما وقع الخلاف بين جان جليازوا Jean Galeazzo الوارث والحاكم

الشرعي لميلان ولودفيكو سفورزا Sfoza Ludovico المغامر العسكري الذي رغب في عرش ميلان، ولهذا فقد استتجد جليازوا بفرديناند الأول^(١٢) Ferdinand ١٤٥٨-١٤٩٤م ملك نابولي بينما استتجد لودفيكو سفورزا بشارل الثامن ملك فرنسا^(١٣).

رحب شارل الثامن بهذه الدعوة وعبر الألب في أيلول ١٤٩٤م ونزل في بيدمونت واجتاح الجيش الفرنسي فلورنسا وأنزل حاكمها عن عرشها، ووصل شارل الثامن إلى العاصمة روما في ٣١ كانون الأول ١٤٩٤م قاصداً نابولي^(١٤).

أدى ذلك النصر السريع إلى إثارة مخاوف كل من يهيمه الأمر فتكون حلف البندقية في آذار ١٤٩٥م للحد من زحف شارل، وكان أعضاء هذا الحلف: الإمبراطور مكسمليان الذي استاء من النصر السياسي والعسكري الذي ظفرت به فرنسا وفرديناند الكاثوليكي صاحب الادعاء في نابولي وأيضاً البندقية والتي خافت على مصالحها التجارية، وميلان والتي ذاقت النيران الفرنسية والبابا إسكندر السادس^(١٥) Alexander VI ١٤٩٢-١٥٠٣م والعضو الأخير كان صاحب فكرة الزحف الفرنسي لودفيكو سفورزا، والسبب في هذا يرجع إلى وفاة منافسه في الحكم فرغب في أن يحكم باستقلالية تامة عن سيطرة فرنسا^(١٦).

وصلت أنباء ذلك الحلف إلى شارل الثامن وهو في فورنوفو وهنا خاف شارل الثامن من أن يقطع عليه هذا الحلف خط الرجعة، ولذا قرر الانسحاب إلى فرنسا من جديد فخرج من نابولي في ٢٠ أيار ١٤٩٥م، وعند عودته عقد صلحاً مع لودفيكو سفورزا وترك له بمقتضاه ميلان وكان هذا الانسحاب نصراً للتوازن الدولي^(١٧).

توفي الملك الفرنسي شارل الثامن في نيسان ١٤٩٨م من دون أن يحقق الأهداف التي كان يحلم بتحقيقها وخلفه في الحكم ابن عمه لويس الثاني عشر Louis XII ١٤٩٨-١٥١٥م والذي كانت لديه رغبة كسلفه في التوسع في إيطاليا، ورأى أن أسرة سفورزا اغتصبت هذا العرش وأنه أحق به

من هذه الأسرة^(١٨).

وتماماً مثلما فعل شارل الثامن من قبل سار لويس الثاني عشر في سبيل تمهيد الطريق أمام احتلاله لميلان اذ إنه ضم جمهورية البندقية إليه وأنه تقرب من البابا وعقد إتفاقاً بين فرنسا وكل من إنكلترا والإمبراطورية الرومانية المقدسة حتى يكونا على الحياد من صراعه مع ميلان، عبر لويس الثاني عشر إلى إيطاليا في آب ١٤٩٩م وتمكن من أسر لودفيكو سفورزا وأرسله إلى فرنسا ودانت له إيطاليا الشمالية^(١٩).

رغب لويس في تحقيق حلم سلفه في الاستحواذ على نابولي، ولكن هذا لم يكن بالسهولة التي كان قد استولى بها على ميلان فقد عقد اتفاق ثنائي بين فرديناند الكاثوليكي ولويس الثاني عشر بمعرفة البابا إسكندر عرف بمعاهدة غرناطة Grenada عام ١٥٠٠م ونصت تلك المعاهدة على إرسال حملة عسكرية إلى نابولي على أن يكون لقب الدوق الكبير من نصيب فرديناند ولقب ملك نابولي من نصيب لويس الثاني عشر^(٢٠).

لم تتمكن نابولي من الصمود أمام الاتحاد العسكري وسقطت مناطق كثيرة، إلا أن تضارب المصالح لم يلبث أن دب بين المتحالفين فرديناند ولويس الثاني عشر، وهكذا أصبح التحالف هشاً، فتتابعت الهزائم الفرنسية وطردت من نابولي ولم يلبث الفرنسيون أن اعترفوا بسيادة الإسبان على نابولي ولم يعد يملك الفرنسيون في إيطاليا سوى ميلان^(٢١).

وعلى الرغم من أن الفرنسيين لم يبق لهم في إيطاليا سوى ميلان إلا أنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا عليها بسبب تغير الموقف الدولي، إذ إن البابا إسكندر السادس توفي وخلفه على كرسي البابوية البابا يوليوس الثاني^(٢٢) Jules

II ١٥٠٣-١٥١٣م الذي أراد استعادة مجد البابوية القديم عن طريق تشديد قبضة البابوية على الكنائس التابعة لها وزيادة رقعة الأراضي العائدة على البابوية بالنفع، ولهذه الأسباب دخل البابا في صراع مريع ضد جمهورية البندقية الذي لم تجن إيطاليا من ورائها سوى الحروب المدمرة، ولقد كان البابا يوليوس الثاني حاقداً على جمهورية البندقية من قبل أن يجلس على

كرسي البابوية، وذلك لأن البندقية كانت جمهورية ذات نشاط تجاري وصناعي كبير وكانت تنافس مدينة جنوة التي هي مسقط رأس البابا، وبعد أن اعتلى يوليوس الثاني كرسي البابوية ازداد الشعور إزاء جمهورية البندقية، إذ كانت البندقية تدير شؤون كنيستها من دون الرجوع إلى الكنيسة في روما مما قد يؤدي إلى استقلالها وهو أمر يتنافى مع أهداف يوليوس الثاني^(٢٣).

بدأ يوليوس الثاني العمل من أجل القضاء على جمهورية البندقية في كانون الأول ١٥٠٨م حينما دعي إلى عقد حلف ضد جمهورية البندقية، ووجد كل صاحب غرض في الحلف فرصة مناسبة لدخول إيطاليا تحت ستار البابوية، وكان أعضاء الحلف لويس الثاني عشر ملك فرنسا، إذ إنه رأى أن حصول فرنسا على جمهورية البندقية شيء يعيد إليها كرامتها بعد أن فقدت كل مالها في إيطاليا - باستثناء ميلان - والإمبراطور مكسمليان الذي رأى أن البندقية قد أساءت إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة بامتلاكها عدد من الولايات التابعة للإمبراطورية، وفرديناند الكاثوليكي ملك إسبانيا الذي لم يرد أن تنفرد فرنسا بأمر إيطاليا وحدها وأن يزيد من مساحة أملاكه في إيطاليا بعد أن أتم استيلائه على نابولي، وعلى الرغم من أن فلورنسا بقيت على الحياد لمدة إلا أنها لم تلبث أن انضمت إلى الحلف، وذلك لأن أهلها كانوا يعملون في ميدان التجارة والمال والقضاء على جمهورية البندقية يتيح لهم التخلص من منافس قوي في الميدان، وعرف ذلك الحلف باسم حلف كمبراي League of Combrai^(٢٤).

بدأت أول خطوة من خطوات الحلف من جانب لويس الثاني عشر ملك فرنسا، لأن فرنسا هي أكثر الدول الأعضاء التي أهينت كرامتها في إيطاليا، فقد أرسلت فرنسا جيشها إلى إيطاليا وتمكن هذا الجيش عام ١٥٠٩م من ايقاع الهزيمة بالبنادقة في أجنادلو، وهنا حاولت البندقية عقد صلح، ولكن الحلف رفض العرض وكادت البندقية أن تنهار تحت ضربات فرنسا المتتالية، ولكن الذي انقذها هو عدول البابا يوليوس الثاني عن فكرة تحطيم جمهورية البندقية، وكان هذا القرار ناتجاً عن تفكير عميق، ذلك أن البابا

حصل على الممتلكات التيأراد الحصول عليها من جمهورية البندقية، هذا من جهة ومن جهة أخرى رأى أن البندقية قوة لا يمكن الاستناد عليها في مواجهة الإمبراطورية العثمانية، وثالثاً أن جمهورية البندقية تحفظ إلى حدّ ما توازن القوى داخل إيطاليا إذ إنها تحد من سيطرة إسبانيا أو فرنسا على الدولة الإيطالية لاسيما وأن إسبانيا تمتلك نابولي وفرنسا تمتلك ميلان^(٢٥).

ولهذا فقد تنكر البابا يوليوس الثاني للحلف وعقد صلحاً ثنائياً بين البابوية وجمهورية البندقية في نيسان ١٥١٠م، الأمر الذي أثار غضب واستياء كل من لويس الثاني عشر ملك فرنسا والإمبراطور مكسمليان وقررا أن الحرب ضد جمهورية البندقية لاتزال مستمرة قدماً، ولكن البابا أجاب على هذا التصرف بأن أعلن الثورة ضد البرابرة وطردهم من إيطاليا، فما كان من لويس الثاني عشر إلا أن حاصر مقر البابا في بولونا ومرة أخرى عاد يوليوس الثاني إلى استعمال الدهاء، إذ طلب من لويس الثاني عشر أن يمنحه فرصة للصلح، ولكنه هرب وعادت الحرب بين لويس الثاني عشر والبابا يوليوس الثاني في أيار ١٥١١م، إلا أن البابا هرب إلى روما وتوقف الجيش الفرنسي عن مطاردته، وهنا ظن لويس الثاني عشر أنه انتصر فعقد مجمعاً دينياً من كرادلة فرنسا أقر فيه عزل يوليوس الثاني ولاح في الأفق بداية انشقاق آخر^(٢٦).

كانت قرارات المجمع أضعف من أن تؤثر على البابا يوليوس الثاني، وربما رد ذلك الضعف إلى أنه عقد من الكرادلة الفرنسيين فقط، في الوقت الذي كانت تتنافس فيه فرنسا مع إسبانيا والإمبراطورية الرومانية، ومن ثم دعا البابا يوليوس الثاني إلى تكوين الحلف المقدس The Holy League في ٥ تشرين الأول ١٥١١م، وقد وجدت الدعوة رغبة قوية من الدول وانضمت إليه سويسرا وإنكلترا وجمهورية البندقية وانضم الإمبراطور مكسمليان بعد قليل، وكان هدف الحلف الحفاظ على سيادة الكنيسة وقوتها والقضاء على النزعة الانفصالية التي أوجدها مجلس الكرادلة وإعادة أملاك البابوية التي اغتصبتها فرنسا ومساعدة إسبانيا على الوصول إلى حدودها الطبيعية،

وأخيراً طرد الفرنسيين عن إيطاليا، ولهذا فقد احتوى قرار تكوين هذا الحلف على تنفيذ المقررات التالية^(٢٧):-

أولاً: أن يكون للحلف جيش من ٣٦ ألف مقاتلاً.

ثانياً: أن تقدم إسبانيا اثنتا عشر قطعة حربية من أسطولها مقابل أربعة عشرة سفينة من البندقية.

ثالثاً: يقدم البابا إلى دوق البندقية ألف قطعة ذهبية كل شهرين لدعم المجهود الحربي.

رابعاً: أن يتولى القيادة العامة لجيش الحلف نائب ملك إسبانيا في نابولي.

خامساً: إن يقوم جيش الحلف بالهجوم على فرنسا من الشمال والجنوب في آن واحد حتى يتشتت جيش فرنسا.

نجح الحلف في تحقيق أغراض البابا، إذ انسحب الفرنسيون من شمال إيطاليا ونابولي وقلوا راجعين إلى فرنسا، واستولى الإسبان على نافار، ونجح البابا في طرد الفرنسيين من إيطاليا وتخلص من خطر جزئي، أما إيطاليا فقد أصبحت مليئة بالجنود الإسبان والألمان والسويسريين، وكان عليه أن يواجه ثلاثة أخطار بدلاً من خطر واحد وربما فكر البابا يوليوس الثاني في إعادة الكرة بتكوين أحلاف ضد كل خطر على حدة، إلا أن المنية وافته قبل تحقيق حلمه بعد أن أوقع إيطاليا فريسة سهلة في يد الألمان والإسبان التي كانت تسعى فيه إسبانيا وللسبب نفسه الذي سعت من أجله فرنسا وهو ضم شبه الجزيرة الإيطالية^(٢٨).

تولى البابا ليو العاشر Leo X ١٥١٣-١٥٢١م كرسي البابوية في ١٩ آذار ١٥١٣م وكان في موقف حرج، إذ كان عليه أن يحل القضية الإيطالية التي كانت نهياً لشتى أنواع الاحتلال، فقد تمكن الإسبان من أن يقفوا على أراضي إيطاليا شماليها وجنوبيها بأقدام ثابتة في الوقت الذي كانت تحاول فيه فرنسا استعادة ميلان في إيطاليا، ولكن سرعان ما تطورت الأحداث، إذ عقد الفرنسيون وجمهورية البندقية حلفاً في آذار ١٥١٣م سمي حلف بلو League of Bloix وكان التحالف عسكرياً أرادت فرنسا من ورائه استرداد

إقليم لمبارديا والسيطرة على جمهورية البندقية^(٢٩).

ردّ البابا ليو العاشر على الحلف بحلف مماثل، وقد انضم إلى الحلف بطبيعة الحال فرديناند الكاثوليكي ملك إسبانيا، ومكسمليان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وهنري الثامن Henry VIII ١٥٠٩-١٥٤٧م ملك إنكلترا والولايات البابوية وبدأت الحرب في أيار ١٥١٣م، إذ كانت القوات الفرنسية والبندقية في طريقها إلى ميلان، فاصطدمتا مع الجنود السويسريين، لكن النصر حالف القوات السويسرية وتفككت فرق التحالف العسكري ذلك أن الفرنسيين انسحبوا إلى فرنسا والبندقيون انسحبوا إلى بادوا^(٣٠).

استمرت قوات جمهورية البندقية تواجه قوات الإمبراطور مكسمليان لمدة عام كامل، ولكن من دون جدوى، أما فرنسا فإن ميدان القتال انتقل إلى أراضيها في نورماندي وأوقعت بها القوات الإنكليزية هزائم منكرة فما كان من فرنسا إلا أن حاولت حل المسألة سلمياً، وذلك عن طريق عقد الصلح مع البابا ثم مع إسبانيا والإمبراطور وهنري الثامن ملك إنكلترا في آب ١٥١٤م، وقد نص الصلح على أن يتزوج لويس الثاني عشر ملك فرنسا من ماري Mary شقيقة ملك إنكلترا^(٣١).

توفي الملك لويس الثاني عشر^(٣٢) بعد مضي شهر من ذلك الصلح في كانون الثاني ١٥١٥م وبهذا يكون الدور الأول من الحروب الإيطالية قد انتهى.

ب. الدور الثاني (١٥١٥-١٥٥٩م):

نظراً لأن سنوات الحرب في هذا الدور أضعاف الدور الأول فإنه تقسم على خمسة مراحل حتى يسهل دراستها وتتبعها على نحو ميسر، وهذه المراحل هي:

١. المرحلة الأولى (١٥١٥-١٥١٩م):

تبدأ المرحلة بتولي فرانسوا الأول^(٣٣) Francois I ١٥١٥-١٥٤٧م عرش فرنسا وكان فرانسوا من الفرع الأصغر لأسرة الفالو الحاكمة، وبعد توليه

العرش رأى أن فرنسا قد فقدت كل مالها من هيبة وكرامة في حربها من أجل استرداد ميلان، ولهذا فقد بدأ في العمل بأن عقد حلفاً مع كل من جمهورية البندقية وشارل حاكم الأراضي المنخفضة وهنري ملك إنكلترا تمهيداً لغزوة إيطاليا حتى لا يتعرض ويعرض بلاده للمهالك السابقة^(٣٤).

رأى البابا ليو العاشر إن السبيل الوحيد لمواجهة الحلف أن يكون الرد عليه بحلف مضاد، وقد قام كون حلفاً مضاداً من الامبراطور مكسمليان وفرديناند الكاثوليكي وفلورنسا والسويسريون ودوق ميلان^(٣٥).

بدأ فرانسوا الأول في أول خطواته لتنفيذ هدفه، إذ ادعى وراثة عرش ميلان عن جدته سبباً دبلوماسياً لما قَرَّرَ أن يقوم به، إذ تقابل مع جيش من السويسريين المرتزقة في موقعة مارينيانو Marignano انتصر فيها الجيش الفرنسي ثم تابع الانتصار باستيلائه على ميلان وأسر دوق ميلان وأرسله إلى فرنسا، وكان لهذا النصر نتائج مهمة هي^(٣٦):-

أولاً: نظراً لأن السويسريين كان عملهم هو الارتزاق من الحرب لذا فإنهم كانوا يقدرون المواهب القتالية وهذا ما دفعهم إلى التخلي عن التحالف البابوي، إذ أعجبوا بشجاعة فرانسوا الأول، ومن ثم عقد معهم فرانسوا الأول معاهدتين في عامي ١٥١٥م و١٥١٦م على التوالي تعهدت فيها القوات السويسرية بعدم الوقوف أمام فرنسا في حرب مرة أخرى، وكانت المعاهدتان بمثابة ميثاق للصلح على مدى الثلاثة قرون التالية حتى الثورة الفرنسية.

ثانياً: اتفاق بولونيا Le Concordat de Bologne، وقد كان أهم ما قام به فرانسوا الأول وكان مع البابا ليو العاشر، إذ نص على أن يقوم ملوك فرنسا بتعيين كبار رجال الدين مقابل أن تدفع فرنسا أموال الكنيسة التي قطعتها منذ قرن تقريباً، وفي هذا تدعيماً للملكية الفرنسية.

ثالثاً: حقق فرانسوا الأول السيطرة الفرنسية في شمال إيطاليا، إذ عقد في آب ١٥١٦م معاهدة مع الإمبراطور مكسمليان وجمهورية البندقية كفلت له حق السيطرة السياسية على ميلان وجنوة، وهكذا فقد أصبح مسيطراً على إقليم لمبارديا في شمال إيطاليا.

رابعاً: عقد فرانسوا الأول معاهدة نويون Noyon في ١٣ آب ١٥١٦م مع أرشيدوق النمسا ووارث عرش إسبانيا، تعهد فيه شارل أن يتزوج أميرة فرنسية ويكون صداق الزواج الجزء الخاص بادعاء فرانسوا الأول في مملكة نابولي، وفي مقابل ذلك اعترف شارل بملكية فرنسا على ميلان، وبهذا فقد تقاسمت إسبانيا وفرنسا الغنائم الإيطالية، فحصلت فرنسا على ميلان في مقابل أن حصول إسبانيا على نابولي.

٢. المرحلة الثانية (١٥١٩-١٥٢٩م):-

تمثل تلك المرحلة من الحروب الإيطالية بداية الصراع المير بين أكبر أسرتين حاكمتين في ذلك الوقت هما: أسرة الهابسبرج الألمانية والفالو الفرنسية من أجل السيطرة السياسية على أوروبا، وحدث أن توفي الإمبراطور مكسمليان وترك فراغاً سياسياً كبيراً في القارة^(٣٧).

ونظراً لأن حكم الإمبراطور لم يكن وراثياً من الناحية النظرية، فقد رشح فرانسوا الأول ملك فرنسا نفسه، وهنري ملك إنكلترا، وشارل ملك إسبانيا، وأمام رغبة الشعب الألماني في عدم تولي هذا المنصب الإمبراطوري فإن هذا سوف يقوي مركزه في إيطاليا، وأن هنري ملك إنكلترا لم يكن بالقدر الذي يستطيع به إدارة الإمبراطورية، فقد كان شارل الأول ملك إسبانيا في نظرهم أنسب المرشحين لهذا المركز لأنه حفيد الإمبراطور مكسمليان وهو أقوى شخصية في ذلك الوقت في أوروبا وسوف يحقق للشعب الألماني الزعامة على أوروبا^(٣٨).

ومن أجل ذلك فقد أقر مجلس الدايت اختيار شارل ملك إسبانيا إمبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة (الإمبراطور كارلوس الخامس)، وكان الاختيار قلباً لموازن القوى الأوروبية، إذ جمع الإمبراطور شارل لنفسه ملك إسبانيا والنمسا فضلاً عن ألمانيا وإقليم برجندي على الحدود الفرنسية^(٣٩).

والجدير بالذكر أن الإمبراطور شارل الخامس^(٤٠) فكر في ربط أملاكه على حساب فرنسا، إذا دعت الظروف الجغرافية إلى ذلك، ففي حال تفكك فرنسا فإنه يستطيع ربط إسبانيا من جهة الأراضي المنخفضة وفرانش كومتيه من

ناحية أخرى، ولكن شارل اتبع السياسة الفرنسية السابقة وهي التمهيد الدولي إذ عقد اتفاقاً مع الثائر الفرنسي وقائد عام جيوش فرنسا "دوق دي بريون" حتى يضمن مساعدته في سبيل الحصول على مقاطعة دوفين Dauphine ومقاطعة بروفانس Provence وذلك حتى يضمن ربط ممتلكاته برجنديا وإسبانيا بإمارة تدين له بالولاء^(٤١).

أما هنري الثامن ملك إنكلترا فقد كان مثار الصراع بين كل من شارل الخامس وفرنسا الأول بشأن الاستتار به فقد حاول كل منهما ضمه إلى جانبه في وجه الآخر، ولكن شارل الخامس وهو في طريقه إلى إكس لاشبل حتى يتسلم التاج الإمبراطوري توقف في ميناء دوفر الإنكليزي وأجرى مفاوضات مع الملك هنري الثامن وتمكن من استمالاته للوقوف بجانبه في وجه فرانسوا الأول مقابل إقليم بيكارديا ونورماندي الفرنسيين ووافق الملك هنري الثامن على ذلك العرض المغربي في الوقت الذي حاول فيه فرانسوا الأول إجراء اتصالات معه، ولكنه أخفق في ذلك وبذلك حمى شارل الخامس حدود الأراضي المنخفضة من الخطر الفرنسي^(٤٢).

وعلى هذا فقد بدأت الحرب بين الإمبراطور شارل وفرنسا الأول، وقد هزم فيها الجيش الفرنسي مما أضطره إلى إخلاء ميلان عدا قلعها وهنا حاول شارل أن ينتهز الفرصة فعقد حلفاً دفاعياً مع البابا أدريان السادس^(٤٣) Hadrian VI ١٥٢٢-١٥٢٣م وإنكلترا وميلان وجنوه وفلورنسا والبندقية، إذ رأى فرانسوا الأول أن الحل الأمثل لتلك الأزمة هو العودة إلى ميلان وتثبيت أقدامه بها فأعد العدة للعودة إلى إيطاليا، ولكنه اصطدم بجيش الحلف المعادي في بافيا في ٢٤ شباط ١٥٢٥م، وكانت تلك المعركة ضربة قاصمة وجهت إلى فرنسا، ذلك أن فرانسوا الأول ملك فرنسا الذي مثل كرامة شعبه وقع في الأسر وأرسل إلى إسبانيا، وهناك وقع مرغماً على معاهدة مدريد ١٤ كانون الثاني ١٥٢٦م وقد احتوت تلك المعاهدة خمسين مادة إلا أننا سوف نذكر أهم تلك المواد وهي^(٤٤):

أولاً: أن يتنازل فرانسوا الأول عن دوقية برجنديا (فرانش كومتيه وبرجنديا)

شرق فرنسا.

ثانياً: أن يتنازل فرانسوا الأول عن ادعاءاته في ميلان وجنوة ونابولي وفلندرا وأرتوا.

ثالثاً: يتعهد فرانسوا الأول بعدم مساعدة نافار.

رابعاً: يرد فرانسوا الأول الأراضي التي صادرها من الكونستابل دوق بوربون.

خامساً: يقدم فرانسوا الأول ولديه رهينة في إسبانيا لضمان تنفيذ شروط المعاهدة.

سادساً: إن يتعهد فرانسوا الأول في حالة عدم تنفيذ شروط المعاهدة بتسليم نفسه للإمبراطورية لإعادته للأسرة مرة أخرى.

سابعاً: يزوج فرانسوا الأول من اليانور شقيقة شارل الخامس.

ثامناً: يتم تنفيذ شروط المعاهدة خلال ستة أسابيع من توقيعه.

وبهذا الانتصار اختل التوازن الدولي الأوربي في ذلك الوقت، ولهذا فقد تكون حلف كونيالك League of Cokgnac بسبب خوف البابا كلمنت السابع^(٤٥) Clement VII ١٥٢٣ - ١٥٣٤م من استيلاء شارل الخامس على إيطاليا والرغبة في إعادة التوازن الدولي وانضم إلى الحلف فرانسوا الأول ودوق سفورزا والبندقية وإنكلترا وفلورنسا، وكان الغرض الظاهري لذلك الحلف إعادة الولايات البابوية لما كانت عليه^(٤٦).

تعرض الإمبراطور شارل الخامس إلى موقفاً حرجاً، إذ واجه تمرد الجيش بسبب تأخر مرتباته ووجود العثمانيين على أبواب المجر وفي حالة انتصارهم سوف يملكون المجر كاملة ويبدؤون في تهديد النمسا نفسها، وكانت البندقية تفضل الانضمام للإمبراطورية العثمانية على أن تكون تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، والأكثر من هذا وذلك أن الإيطاليين قد ثاروا ضده، ولكن الحظ حالف شارل الخامس مرة أخرى، وذلك لاختلاف الهدف بالنسبة للحلفاء، فقد كان فرانسوا الأول يريد التخلص من شروط مدريد وتحقيق أهدافه السابقة^(٤٧).

هاجمت قوات الإمبراطور شارل الخامس قلعة ميلان إلا أنها لم تتمكن من

الصمود أمام الجيوش فاستسلمت وزحفت بعد ذلك إلى روما، وهنا قام الجنود بأعمال السلب والنهب فيها في أيار ١٥٢٧م، وتداعت الحضارة الثقافية أمام جيوش الإمبراطور العسكرية وحاصر البابا في قلعته في الوقت الذي استرد فيه فرانسوا الأول إقليم لمبارديا واتجه لنجدة البابا من حصار قوات شارل الخامس إلا أنه صدم حين وجد أن البابا قد عقد الصلح مع شارل- ومثلما حدث من قبل بين البابا يوليوس الثاني والملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا، استمر فرانسوا الأول في الزحف إلى نابولي إلا أنه هزم في لانديريانو Landriane، واضطر فرانسوا الأول إلى عقد الصلح في كمبراي في ٣ آب ١٥٢٩م، وقد أطلق على تلك المعاهدة (سلم السيدات)، إذ كانت تمثل الجانب الفرنسي الملكة لويز Louise والدة الملك فرانسوا الأول، وعلى الجانب الآخر كانت مارجريت Margaret حاکمة الأراضي المنخفضة وعمة الإمبراطور شارل الخامس وأهم ما جاء في ذلك الصلح^(٤٨):

أولاً: يتنازل فرانسوا الأول عن ادعاءاته في فلندرا وارتوا.

ثانياً: يتزوج الملك فرانسوا الأول من ليونور شقيقة الإمبراطور.

ثالثاً: يتنازل الإمبراطور شارل الخامس عن برجنديا وتعاد إلى فرنسا.

رابعاً: اطلاق سراح أبناء فرانسوا الأول في إسبانيا مقابل مليون قطعة ذهبية.

عدّ ذلك الصلح انتصاراً آخر للإمبراطور شارل الخامس، إذ حقق أهدافه

الاستعمارية في إيطاليا وثبت أقدامه في غرب الراين وجنوب الألب، إلا أنه

وجد أن أعباء الإمبراطورية قد أرهقته فعمل على تولية ابنه فيليب Philipp

على الممتلكات الإسبانية^(٤٩).

٣. المرحلة الثالثة (١٥٢٩-١٥٤٧م):

بدأ الإمبراطور شارل الخامس منذ عام ١٥٢٩م في النظر إلى المصلحة

العامة للإمبراطورية، فوجد أن إمبراطوريته على حالة يرثى لها فقد كانت

ألمانيا تعاني من المشاكل الناجمة عن حركة الإصلاح الديني اللوثيري،

كذلك فقد ازدادت قوة العثمانيين لدرجة أثارت مخاوف الإمبراطور بشدة

وذلك في البحر المتوسط، أما في داخل القارة، فقد كان توسع العثمانيين في حوض نهر الطونة يسير سريعاً وهذا النهر يخترق أملاك الإمبراطورية، لهذا فقد تحولت سياسته من البحث عن الزعامة السياسية في أوروبا والمنافسة مع فرانسوا الأول إلى البحث عن المصلحة العامة للإمبراطورية^(٥٠).

أما فرانسوا الأول فإنه لم يتنازل عن طموحه في إيطاليا، ولهذا فقد عمد إلى التعاون مع أعداء الإمبراطور، إذ تقرب إلى اللوثرين في ألمانيا وتحالف مع العثمانيين، وبدأت الحرب في هذا الدور في تشرين الثاني ١٥٣٥م بسبب وفاة فرانسيسكو سفورزا دوق ميلان فرغب كل من شارل الخامس وفرانسوا الأول في ضمها إلى حوزته ونشبت الحرب بينهما ولكنها لم تكن مؤثرة فعقد صلح نيس Nice في حزيران ١٥٣٩م وتقرر أن تستمر تلك المعاهدة لمدة عشر سنوات، إلا أنها لم تستمر إلا لمدة أربع سنوات^(٥١).

تجدد الصراع مرة أخرى بين الطرفين بسبب تعيين الإمبراطور شارل الخامس ابنه فيليب عام ١٥٤٢م على دوقية ميلان خلافاً لصلح نيس، وهنا تجددت الحروب مرة أخرى وكادت فرنسا أن تصاب في عقر دارها في تلك المرحلة، وذلك لأن الإمبراطور شارل الخامس زحف على الأرض الفرنسية قاصداً باريس، ولكن الذي أنقذ باريس من الهلاك هو توجس الإمبراطور شارل من حليفه الإنكليزي، ومن ثم قرر عقد الصلح مع فرنسا وأطلق على ذلك الصلح صلح كرسبي Crecpe في أيلول ١٥٤٤م وأهم بنود الصلح^(٥٢) أولاً: يتنازل الإمبراطور شارل عن ادعاءاته في برجنديا.

ثانياً: تتنازل فرنسا عن بيدمنت وسافوي.

ثالثاً: عقد زواج سياسي بأن يتزوج الدوق أورليان ابن فرانسوا الأول من ابنة الإمبراطور شارل الخامس وصادق ذلك الزواج أن يتم تقديم الطرف الأول الأراضي المنخفضة ويقدم الطرف الثاني ميلان.

وبهذا الحل الدبلوماسي تكون فرنسا قد حققت أهدافها السياسية في شمال شرق إيطاليا، ولكن لم يكتب النجاح لهذا المشروع، إذ توفي الدوق أورليان في آذار ١٥٤٥م وبعد عامين توفي فرانسوا الأول وخلفه في تولي العرش

هنري الثاني^(٥٣) Henry II ١٥٤٧-١٥٥٩م في آذار ١٥٤٧م^(٥٤).

٤. المرحلة الرابعة (١٥٤٧-١٥٥٢م):

استؤنفت الحرب في تلك المرحلة لأسباب دينية، فقد كانت الظروف تدفع هنري الثاني ملك فرنسا لإعلان الحرب على الإمبراطورية الرومانية، إذ كان الملك خاضعاً لأسرة جيزو Gesu الفرنسية تلك الأسرة التي تنتسب إلى بيت أنجو Anjou صاحب الأملاك الواسعة في إيطاليا وكانت أسرة (جيزو) تريد إعادة أمجادها في إيطاليا ومهدت الطريق لذلك أمام الملك هنري الثاني وذلك بتأييد اسكتلندا له، إذ إن ماري لويز شقيقة جيزو كانت الوصية على حكم إسكتلندا^(٥٥).

ومن جانب آخر فإن البابا بول الثالث^(٥٦) Paul III ١٥٣٤-١٥٤٩م كان على خلاف مع الإمبراطور شارل الخامس، إذ أساء - في نظره - إلى الكنيسة فقد حاول الإمبراطور وضع حل للأزمة الدينية في ألمانيا فعرض من جانبه نظاماً ينطوي على الاحتفاظ بجوهر العقيدة الكاثوليكية مع إرضاء البروتستانت في عددٍ من جوانب عقديتهم وعرف ذلك النظام (بالنظام المؤقت Interim) وكان هذا في مجلس الديت ١٥٤٨م، ولهذا فقد غضب البابا بول الثالث على الإمبراطور، وأنه تخوف من تحركات الإسبان في شبه الجزيرة الإيطالية، إذ إن الإمبراطور ضم بارما وغيرها إلى دوقية ميلان بعد وفاة حاكمها، وهنا صمم البابا وهنري الثاني ملك فرنسا على مواجهة شارل الخامس^(٥٧).

والجدير بالذكر أن الملك هنري الثاني كان مشغولاً بالنزاع مع الإنكليز، مع رفض ماري لويز وصية عرش اسكتلندا إتمام خطوبة ابنتها ماري ستيوارت على إدوارد السادس^(٥٨) Edward VI ١٥٣٧-١٥٥٣م ملك إنكلترا، لأن ماري لويز كانت كاثوليكية في حين كان الملك إدوارد السادس بروتستانتياً، ومن ثم فإن إدوارد السادس أرسل جيشاً إلى اسكتلندا وهزم الجيش الاسكتلندي في بينكي Piankie، ولهذا فقد لجأت اسكتلندا إلى الاحتماء بفرنسا وجرت خطبة ماري ستيوارت على دوفان Dauphin ابن الملك

الفرنسي الراحل فرانسوا الأول، فبدأ في الأفق انضمام اسكتلندا إلى فرنسا وبدأت الحرب بين فرنسا وإنكلترا وانتهت في آذار ١٥٥٠م وضاع ثغر بولوني من الإنكليز مقابل مبلغ من المال تدفعه فرنسا، ولهذا فقد تشجع هنري الثاني على مواصلة الانتصارات ضد شارل الخامس ويكون الهدف من الانتصار هو إيطاليا^(٥٩).

كان هنري الثاني ملكاً صاحب خبرة عسكرية كبيرة، إذ مكنته من الانتصار على العدو (الإمبراطورية الرومانية) وهو سبب رئيس في نجاحه في تلك المرحلة، إذ قرر أن يكون ميدان الصراع ضد شارل الخامس على نهر الراين، وكان يريد بذلك الإفادة من طرفي ألمانيا الأقوياء في ذلك الوقت وهما اللوثريين الذي كانوا في نضال مستمر ضد الإمبراطور شارل، ولاسيما بعد أن أوقع بهم الهزيمة عام ١٥٤٧م في Muhlberg، والطرف الآخر الأمراء الألمان الذين كانوا يخشون من سطوة الهابسبرج، ولهذا فقد عقد هنري الثاني حلف سامبورد Chamord في كانون الثاني ١٥٥٢م ووقع نائب سكسونيا على المعاهدة في شباط ١٥٥٢م، ونصّ الحلف على أن تستولي فرنسا على تول، ومتاز وفردان^(٦٠).

يتضح أن لتلك المعاهدة أهمية خاصة في تاريخ السياسة الأوروبية في مستهل العصور الحديثة، إذ كانت الاختيار الحقيقي لسياسة توازن القوى الدولي، وكذلك أنقذت فرنسا من الهابسبرج.

بدأت الحرب في شباط ١٥٥٢م وتمكن الفرنسيون من الاستيلاء على تول ومتاز وفردان، واستولى نائب سكسونيا على أوجزبرج، وأصبح الإمبراطور طريد الدوق، ومن ثم لجأ الإمبراطور إلى التمهيد لأن يتولى أخوه فرديناند المركز الإمبراطوري، إذ منحه لقب ملك الرومان King of The Romans، وقد تمكن فرديناند من عقد الصلح بين الإمبراطور والأمراء الألمان فيما عرف بصلح بساو Passau، وعقد حلف مع الملك الإنكليزي إدوارد السادس حتى يقوي مركزه أمام فرنسا^(٦١).

٥. المرحلة الخامسة (١٥٥٢-١٥٥٩م):

بعد أن تم عقد صلح بساو بين الإمبراطور شارل الخامس والأمراء الألمان كانت الحرب قد انتهت بالنسبة لهم إلا أن ملك فرنسا لم يتنازل عن تحقيق أطماعه الفرنسية في إيطاليا، ولهذا عزم على مواصلة الحرب ضد الإمبراطور، وكانت الحرب في ذلك الوقت في صالح الفرنسيين، لهذا طلب شارل الخامس عقد صلح مع الفرنسيين، سمي بصلح فوسيل Vaucelles في شباط ١٥٥٦م، وكانت الهدنة تقضي بالاعتراف بملكية متز وغيرها للفرنسيين وأن تكون نافذة المفعول لمدة خمسة أعوام، وبعد الهدنة تنازل شارل الخامس عن عرش الإمبراطورية لأخيه وعن إسبانيا لابنه فيليب الثاني^(٦٢) وعاد إلى إسبانيا^(٦٣).

ولكن الهدنة لم تكن طويلة الأجل فلم تستمر إلا عدة شهور، وذلك لتولي كرسي البابوية البابا بول الرابع Paul IV^(٦٤) ١٥٥٥-١٥٥٩م الذي عرف بكرهه للإسبان فأراد طردهم من إيطاليا وإخراجهم من نابولي، ولهذا فقد تحالف مع الملك هنري الثاني الذي سعى إلى الحصول على نابولي لأحد أبنائه فما كان من فيليب الثاني Felipe II ١٥٥٦-١٥٩٨م ملك إسبانيا إلا أن أمر نائبه في نابولي بالهجوم على الأملاك البابوية، ولكن فيليب بصفته حامي الكاثوليكية لم يرد القضاء على البابا نظراً لصفته زعيماً للكنيسة الكاثوليكية، وحينما قويت قبضة الإسبان على البابا، اضطر لعقد صلح مع حاكم ميلان، وفي تلك الأثناء وصلت الجيوش الفرنسية وقامت بغزو نابولي وانسحب حاكم نابولي إلى الجنوب^(٦٥).

حاول الملك الإسباني فيليب الثاني استمالة إنكلترا بجانبه في الصراع الدائر ضد فرنسا فقام بزيارة ملكة إنكلترا ماري تيودور Mary Tudor ١٥٥٣-١٥٥٨م هو وزوجته وأعلنت إنكلترا الحرب ضد فرنسا وتم حصار القوات الفرنسية في مدينة سان كانتان San Quentin وبعد أن اشتدت قبضة الإسبان عليهم أرسلت فرنسا جيشاً لنجدتهم، إلا أنها منيت بهزيمة ساحقة في ١٠ آب ١٥٥٧م^(٦٦).

تعرض الملك فيليب الثاني إلى ظروف حرجة وضعت في موقف لا يحسد

عليه، إذ رغب الجيش الإنكليزي بالعودة إلى إنكلترا، وثار الجنود الألمان ضده لتأخر أجورهم، فما كان من فيليب الثاني إلا أن أمر بتسريح ذلك الجيش في الوقت الذي تمكن فيه الفرنسيون من جمع شتاتهم وكونوا جيشاً قوياً وحاصروا ثغر كاليه آخر الأراضي الإنكليزية داخل القارة وداخل فرنسا حتى وقعت في أيديهم بعد ثمانية أيام من الحصار^(٦٧).

اصطدم الفرنسيين بجيش فلنكي وبالأسطول الإنكليزي الذي عرف بقوته وهزموا في جرافلين Gravelines في تموز ١٥٥٨م وبدأت بعد تلك الهزيمة عقد ترتيبات الصلح الذي أنهى الحرب^(٦٨).

المبحث الثالث: نهاية الحروب الإيطالية- صلح كاتو كمبرسيس Cateau

Cambersis عام ١٥٥٩م

بعد أن مني الجيش الفرنسي بالهزيمة في جرافلين تقرر إنهاء الحروب التي استنفذت قوى الدول المتصارعة وعقد معاهدة كاتو كمبرسيس التي وقعت في ٣ نيسان ١٥٥٩م وأهم ما جاء فيها^(٦٩).

أولاً: فيما يتعلق بالحدود الشمالية الشرقية لفرنسا، حصلت فرنسا على هام Ham ولوكاتليه La Catelet وتيرونان Terouanne وسان كانتان San Quentin بالمقابل تنازلت عن بوفين وبويون إلى أسقف لياج، وتنازلت عن مارينبرج Marienburg وتيونفيل Thionville ودامفيلير Damvillers ومونتوميدي Montmedy.

ثانياً: فيما يتعلق بإيطاليا والحدود الجنوبية الشرقية لفرنسا وافق الفرنسيون على إخلاء مونتفرات Monferrat وكورسيكا، وسافوي وغيرها.
ثالثاً: فيما يتعلق بالحدود الشرقية لفرنسا، بقيت لفرنسا أسقفيات تول ومتاز وفردان فلم يطالب بها الإمبراطور.

رابعاً: تزوج فيليب الثاني من ابنة هنري الثاني ملك فرنسا، وتزوج دوق سافوي من مرجريت شقيقة هنري وتم عقد القران في ١٠ تموز ١٥٥٩م.

كان صلح كاتو كمبرسيس أساس العلاقات الدولية بين الدول الأوروبية على

مدى المائة عام التالية، والواقع أنه لا توجد تسوية أوربية حققت ما حققته التسوية التي أنهت الحروب الإيطالية (كاتو كمبرسيس)، إذ إنها أنهت المنافسة بين أكبر أسرتين متصارعتين في أوروبا في ذلك الوقت الفالو والهابسبرج، وأعطت إسبانيا مساحات شاسعة لم تكن تتوقعها عند دخولها مضمار الصراع، وأنهى الصلح صراعاً أوربياً شاركت فيه أقطاب أوروبا القوية في ذلك الوقت.

مَثَل الصلح في نظر الفرنسيين كارثة دولية، وربما أرجعوا ذلك إلى ضعف الملك الفرنسي هنري الثاني في ذلك الوقت، على الرغم من أن الانتصارات كانت بفضل خبرته العسكرية، ونستطيع أن نتفهم ذلك من خلال الملاحظات التي أخذت على صلح كاتو كمبرسيس وهي^(٧٠):-

أولاً: اعترفت المعاهدة ضمناً بالسيطرة الإسبانية على إيطاليا وتأييد نظام شارل الخامس في إيطاليا، إذ إسبانيا احتفظت بميلان ونابولي، ووقفت حائلاً من دون تحقيق الوحدة الإيطالية طوال ثلاث قرون وفقدت فرنسا وجودها في إيطاليا.

ثانياً: كان تنازل فرنسا عن سافوي خطراً على فرنسا إذ جعلتها حائلاً ضد المطامع الفرنسية في إيطاليا وبالفعل فقد استفاد حكام سافوي من ذلك في دعم مصالح أسرة سافوي.

ثالثاً: عادت الأراضي المنخفضة الهولندية إلى حدودها القديمة وسيطرت إسبانيا على معظم إيطاليا.

ومن خلال ذلك يتضح أن معاهدة كاتو كمبرسيس كانت نصر لإسبانيا ولكننا إذا تمعنا في المعاهدة نجد أنها كانت السبب في متاعب كثيرة لإسبانيا خلال القرنين التاليين، وذلك لعدة أسباب أهمها^(٧١):

١- حصول فرنسا على ثغر كاليه واحتفاظها بتول وامتز وفردان مما اتاح لها أن تفكر في توجيه ضربات قوية إلى إسبانيا في الأراضي المنخفضة في الوقت الذي تراه مناسباً.

٢- إن المعاهدة بعد أن منحت إسبانيا النفوذ في الأراضي المنخفضة قد

أضرت بها، ذلك أن إسبانيا عملت بعد ذلك على الاحتفاظ بممتلكاتها في تلك الأراضي، وهذا كان سبباً في انهاك قوى إسبانيا وأدى إلى ضياع نفوذها ليس فقط في الأراضي المنخفضة، ولكن أيضاً في البحر المتوسط، كذلك عقب هزيمة الأرمادا عام ١٥٨٨م.

٣- عملت فرنسا بعد أن أمنت حدودها الشمالية الشرقية إلى حد كبير للوصول إلى حدودها الطبيعية، وهذا ما حاول تنفيذه ملوك فرنسا في المرحلة التالية مما كان من شأنه تهديد إسبانيا نفسها.

وفي الحقيقة أن لصلاح كاتو كمبرسيس أهمية على العلاقات الدولية الأوروبية إذ قسم القرن السادس عشر على نصفين ساد في أولهما الصراع بين الهابسبرج والفالو من أجل الزعامة السياسية في القارة، والمعاهدة لم تنته العداء بين الأسرتين إلى أن توفيت ابنة هنري الثامن ملك إنكلترا وعاد العداء من جديد، وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ساد الصراع، بعد أن اتخذت صفة حروب دينية لخدمة الأغراض السياسية.

الخاتمة

من خلال ما تقدم ممكن أن نستنتج ما يأتي :

١- ظهر في الحروب الإيطالية المبدأ السياسي الذي بقي محور الصراع الدائر في أوروبا بعد ذلك وهو مبدأ توازن القوى (التوازن الدولي) The Balance of Power.

٢- تأججت المنافسة المريرة في الحرب بين أسرتي الفالو وال بوربون في فرنسا وأسرة الهابسبرج ذلك التنافس الذي استمر لمدة قرنين من الزمان وكان له أثره على العلاقات الدولية.

٣- شغلت الحروب حكام أوروبا الكاثوليك عن مواجهة حركة الإصلاح الديني مما مهد وساعد بطريقة غير مباشرة لإنجاح أهداف الإصلاح الديني والسير في طريقها، ولم ينتبه حكام أوروبا إلى ذلك الخطر إلا بعد أن كانت أسس العقيدة البروتستانتية قد انتشرت في كل من أوروبا الشمالية وألمانيا وإنكلترا.



٤- أعجب شارل الثامن والملوك الفرنسيون من بعده- بالنهضة الإيطالية ورغبوا في نقلها إلى فرنسا، وهذه هي الحسنة التي جنتها فرنسا من الحروب الإيطالية، إذ بدأت فرنسا طريقها في النهضة الحديثة.

٥- لم تكن الحروب الإيطالية مجرد معارك عسكرية بين معسكرين، ولكن سعياً وتحركاً دبلوماسياً بين المعسكرين، ومن ذلك ظهور مبدأ توازن القوى ومحاولة كل طرف تكوين حلف سياسي عسكري للوقوف به في وجه العدو الآخر، وقد تثبت ذلك المبدأ أحياناً باستعمال زواج المصالح أسلوباً في الصلح والتقريب بين الدول المتصارعة.

الهوامش

١ للمزيد من التفاصيل عن النهضة الإيطالية، ينظر: محمد مظفر الادهمي، تاريخ أوربا الحديث، بغداد، د.ت، ص ١١-١٢.

٢ عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٩، ص ٨٦.

٣ هيربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية، ط ٣، دار المعارف، مصر، ٢٠٠١، ص ٧٢-٧٤.

٤ حرب المائة عام: حرب طويلة جرت بين فرنسا وانجلترا، دامت من ١٣٣٧ حتى ١٤٥٣م، أي تقريباً ١١٦ عاماً بعد ادعاء الملوك الانجليز بالعرش الفرنسي، تلك الحرب قوطعت بعدة مدد من السلام قبل أن تنتهي بطرد الانجليز من فرنسا، باستثناء مقاطعة كاليه. للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد حمزة حسين ولبنى رياض عبد المجيد، المصدر السابق، ص ٣٠٣-٣٠٧.

٥ عمر عبد العزيز عمر، التاريخ الأوربي والامريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٠، ص ٨٤-٨٧.

٦ الملك شارل الثامن: هو ابن الملك الفرنسي لويس الحادي عشر، ولد في ٣٠ حزيران ١٤٧٠م، وهو من سلالة فالوا، أصبح ملكاً على فرنسا من ٨ أيلول ١٤٨٣ حتى وفاته في ٧ نيسان ١٤٩٨م.

James Harvey Robinson and James Henry Breasted, A General History Of Europe, U.S.A, N.D, P.300.

٧ محمد حمزة حسين الدليمي ولبنى رياض عبد المجيد الرفاعي، تاريخ أوربا في عصر النهضة، ط ١، دار تموز، دمشق، ٢٠١٥، ص ١٣٢.

٨ ميلاد. أ. المقرحي، تاريخ أوروبا الحديث ١٤٥٣-١٨٤٨، ط ١، بنغازي، ١٩٩٦، ص ١١٥-١١٦.

٩ عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ٨٨.

١٠ هيربرت فيشر، المصدر السابق، ص ٧٣-٧٤.

- ١١ عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، المصدر السابق، ص ٨٧.
- ١٢ فرديناند الأول: هو ابن الملك أراغون الفونسو الخامس، ولد في ٢ حزيران ١٤٢٣م، ويعرف كذلك باسم دون فرانتني، كان ملكاً لنابولي في المدة ١٤٥٨-١٤٩٤م، أي حتى وفاته في ٢٥ كانون الثاني ١٤٩٤م.
Robinson and Breasted, Op. Cit., P.293.
- ١٣ محمد حمزة حسين الدليمي ولبنى رياض عبد المجيد الرفاعي، المصدر السابق، ص ١٣٣.
- ١٤ عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، المصدر السابق، ص ٨٨.
- ١٥ البابا اسكندر السادس: ولد في ١٨ آب ١٥٠٣م باسم رودريك دي بورخا، وهو البابا الرابع عشر بعد المتين، شغل منصب بابا الفاتيكان للمدة من ٢٠ آ ١٤٩٢ - ٢٨ آب ١٥٠٣م.
J.N.D. Kelly, The Oxford Dictionary Of Popes, Oxford, 1968, P.128.
- ١٦ عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ٨٩.
- ١٧ محمد حمزة حسين الدليمي ولبنى رياض عبد المجيد الرفاعي، المصدر السابق، ص ١٣٤.
- 18 Carlton j. H. Hayes, A Political and Cultural History of modern Europe, vol.1, New York, 1939, P. 149.
- 19 G. R. Potter, the Renaissance 1493-1520, vol.2, Cambridge, 1967, P. 33.
- 20 H. G. Koenigsberger and George L. Mosse, Europe in the Sixteenth Century, 5th ed., Singapore, 1973, P. 65.
- 21 H. G. Koenigsberger, Early Modern Europe 1500-1789, Singapore, 1996, P. 71.
- ٢٢ البابا يوليوس الثاني: ولد في ١٤ كانون الأول ١٤٤٣م باسم جوليانو ديلا روفيري، وهو الباب السادس عشر بعد المتين من ١١ تشرين الثاني ١٥٠٣م حتى وفاته في ٢١ شباط ١٥١٣م.
J.N.D. Kelly, Op. Cit., P.255-256
- 23 Henry W. LITTEFIELD, History of Europe 1500-1848, 5th ed., New York, 1967, P. 54.
- 24 J. Michael Allen and James B. Allen, world History from 1500, New York, 1993, P. 61.
- 25 John Merriman, A history of Modern Europe from the Renaissance to the present, 5th ed., New York, 1966, P. 43.
- 26 M. A. Helm, History of Europe 1450-1660, London, 1976, P. 81.
- 27 Max Savelle and Other, A History of world civilization, U.S.A., 1963, P. 73.
- ٢٨ روبرت ر. بالمر، تاريخ أوروبا الحديث أوروبا من القرون الأولى حتى سنة ١٧٤٠، ترجمة: محمود حسين الأمين، مكتبة الوفاء، الموصل، ١٩٦٤، ج ١، ص ٦٤.
- ٢٩ عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ط ٣، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٧٧، ج ١، ص ٨٥.
- ٣٠ عبد المجيد نعنعي، أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ١٤٥٣-١٨٤٨، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٨.
- ٣١ محمد فؤاد شكري ومحمد أنيس، أوروبا في العصور الحديثة من النهضة الإيطالية حتى الثورة الفرنسية، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج ١، ص ٤٨.
- ٣٢ الملك لويس الثاني عشر: هو ابن الأمير شارل دوق أورليان، ولد في ٢٧ حزيران ١٤٦٢م، أصبح ملكاً على فرنسا للمدة من ٧ نيسان ١٤٩٨ إلى ١ كانون الثاني ١٥١٥م، كان يعرف بلقب أبو الشعب، كان ملكاً من أسرة فالوا، وهو ذو حنكة سياسية مميزة، توفي عام ١٥١٥م.

Robinson and Breasted, Op. Cit., P.297.

٣٣ الملك فرانسوا الأول: ولد في ١٢ أيلول ١٤٩٤م، وهو ابن الأمير شارل أورليان، أصبح ملكاً على فرنسا للمدة من ١ كانون الثاني ١٥١٥ حتى ٣١ آذار ١٥٤٧م، انتقل إليه الملك عن طريق أحد أعمامه، وهو الملك لويس الثاني عشر، قام بمواصلة سياسة أسلافه تجاه الحروب الإيطالية.

Robinson and Breasted, Op. Cit., P.135.

٣٤ محمد حمزة حسين الدليمي ولبنى رياض عبد المجيد الرفاعي، المصدر السابق، ص ١٤٠.

٣٥ عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ٩٣.

٣٦ عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، المصدر السابق، ص ٩٠.

٣٧ عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ٩٣-٩٤.

38 G. R. Elton, the Reformation 1520-1559, vol.2, Cambridge, 1965, P. 75.

٣٩ محمد حمزة حسين الدليمي ولبنى رياض عبد المجيد الرفاعي، المصدر السابق، ص ١٤٢.

٤٠ الملك شارل الخامس: هو ابن الملك فيليب الأول ملك قشتالة، ولد في ٤٢ شباط ١٥٠٠م، كان ملكاً لإسبانياً وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة للمدة من ٢٣ كانون الثاني ١٥١٢م حتى ١٦ كانون الثاني ١٥٥٦م، في أواخر عهده تنازل عن العرش موزعاً ملكه بين ابنه فيليب وأخيه فرديناند، وبذلك اعتزل الحياة السياسية حتى وفاته بمرض الملاريا في ٢١ أيلول ١٥٥٨م. عقيل لطف الله نيمير، تاريخ الجزائر الحديث، جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٨، ص ١١٦؛

Robinson and Breasted, Op. Cit., P.303.

٤١ هريبرت فيشر، المصدر السابق، ص ٧٩ .

42 Elton.Op.Cit,P.77.

٤٢ البابا أدريان السادس: ولد في ٢ آذار ١٤٥٩ باسم فلورنسون بويينس، أصبح البابا الثامن عشر بعد المتين للمدة من ١٩ كانون الثاني ١٥٢٢ حتى ١٤ أيلول ١٥٥٣م.

J.N.D. Kelly, Op. Cit.,, P.255-256.

٤٤ عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ٩٥.

٤٥ البابا كلiment السابع: ولد في ٢٦ ايار ١٤٧٨ باسم جوليو دي جوليانو دي ميدنتشي أحد أعضاء عائلة ميدنتشي الفلورنسي، بابا الفاتيكان التاسع عشر بعد المتين للمدة من ٢٩ تشرين الثاني ١٥٢٣م حتى وفاته في ٢٥ أيلول ١٥٣٤م.

J.N.D. Kelly, Op. Cit.,.263.

٤٦ محمد حمزة حسين الدليمي ولبنى رياض عبد المجيد الرفاعي، المصدر السابق، ص ١٤٤.

47 Merriman, Op. Cit., P. 49.

48 Helm, Op. Cit., P. 83.

٤٩ محمد حمزة حسين الدليمي ولبنى رياض عبد المجيد الرفاعي، المصدر السابق، ص ١٤٦.

٥٠ عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، المصدر السابق، ص ٩١.

51 Elton, Op. Cit., P. 79.

52 Koenigsberger , Op. Cit., P. 82.

٥٣ الملك هنري الثاني: ولد في ٣١ آذار ١٥١٩م، أصبح ملك فرنسا الثاني والأربعون للمدة ٣١ آذار ١٥٤٧م حتى وفاته في ١٠ تموز ١٥٥٩م.

Robinson and Breasted, Op. Cit., P.303.

٥٤ محمد حمزة حسين الدليمي ولبنى رياض عبد المجيد الرفاعي، المصدر السابق، ص ١٤٧.



55 Littefield, Op. Cit., P. 62.

٥٦ البابا بول الثالث: ولد في ٢٠ تشرين الثاني ١٥٤٩م باسم الساندرو فارنيزي، أصبح البابا العشرون بعد المنتين للمدة من ٢٣ تشرين الأول ١٥٣٤م حتى ١٠ تشرين الثاني ١٥٤٩م.

J.N.D. Kelly, Op. Cit.,335.

٥٧ محمد حمزة حسين الدليمي ولبنى رياض عبد المجيد الرفاعي، المصدر السابق، ص١٤٨.

٥٨ إدوارد السادس: ولد في ١٢ تشرين الأول ١٥٣٧م، تولى الحكم وعمره تسعة أعوام، وأصبح بذلك ملك إنجلترا الثاني والعشرين للمدة من ٢٨ كانون الثاني ١٥٤٧ حتى وفاته بمرض السل في ٦ تموز ١٥٥٣م في قصر

Robinson and Breasted, Op. Cit., P.304.

غرينيتش

٥٩ عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، المصدر السابق، ص٩٢.

٦٠ عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص٩٥.

61 Helm,Op.Cit,P.84.

٦٢ الملك فيليب الثاني: ولد في ٢١ ايار ١٥٢٧م، كان ملكاً لإسبانيا أثناء مدة ١٥٥٦-١٥٩٨، وملك نابولي وصقلية للمدة ١٥٥٤-١٥٩٨، وملك إنجلترا القرنين زوجاً لماري الأولى للمدة ١٥٥٤-١٥٥٨، وملك

البرتغال باسم فيليب الأول للمدة ١٥٨٠-١٥٩٨. توفي في ١٣ أيلول ١٥٩٨م.

Robinson and Breasted, Op. Cit., p. 306-307.

٦٣ عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، المصدر السابق، ص٩٣.

٦٤ ولد في ٧ تموز ١٤٧٦م باسم جيوفاني بييترو غارافا، أصبح البابا الثالث والعشرين بعد المنتين للمدة من ٢ حزيران ١٥٥٥ حتى وفاته في ١٨ آب ١٥٥٩م، شهد عهده تنامي نفوذ محاكم التفتيش في

J.N.D. Kelly, Op. Cit.,336.

روما

٦٥ عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص٩٧.

66 Koenigsberger,Op.Cit,P.82.

67 Elton,Op.cit,P.53.

68 Littefield,Op.Cit,P.66.

69 Helm,Op.Cit,P.88.

70 Elton,Op.CitP.56.

٧١ عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، المصدر السابق، ص٩٣.